البرلمان بين الواقع والمرتجى

سيدي الرئيس،

أيها السادة،

الحديث عن الديمقراطية والرقابة وفصل السلطات، كالحديث عن المقدسات لدى الشعوب التي تعيش الديمقراطية وتمارس الرقابة، لأنها باب من أبواب النقاء الفكري الواجب لتطهير النفس من كل ما يعلق بها من أدران المجتمع والسياسة.

لكني وأنا اتحدث عن الرقابة والديمقراطية ومبدأ فصل السلطات سأكون صريحاً وواقعياً وبعيداً عن مداخلة أكاديمية وخاصة في حضرة السيد الرئيس الدكتور عصام سليمان وأنحني أمامه أكاديمياً وهو من كان لي ولزميلي الدكتور رياض غنام شرف مقدمته لكتابنا "الرقابة البرلمانية" وكانت تحت عنوان البرلمان بين الواقع والمرتجى.

أيها السادة،

بادىء ذي بدء أتوجه بتحيتي الى دولة رئيس مجلس النواب الأستاذ نبيه بري لا زلفى ولا ملقاً إنما لسماحه لي بمداخلتي هذه وفيها ما فيها وأنا من رحم مجلس النواب.

والشكر كل الشكر للدعوة الموجهة من "**الجمعية اللبنانية لفلسفة القانون**" حيث أتيت كسندباد شوق يبحث عن مدارات الرحيق.

سيدي الرئيس،

في علم الصرف والنحو عند العرب وفي علم العروض عند الخليل بن أحمد الضامن للوزن والقافية، تبقى «كان» وأخواتُها ترفع وتنصب و«إن» وأخواتها تنصب وترفع، حتى «واو ربَّ» تجرّ، و «لا» تنهى و«لم» تجزم و«لولا» تستدرك و«إذا» تشترط، إنما لم يستعمل البرلمان إلا «لو» ودائماً للتمني، وليس لها أخوات. وفي جميع قواميس اللغة من معجم «العين» للخليل، ومروراً «بلسان العرب» لإبن منظور، وإلى يومنا هذا، ومن المحيط إلى الخليج، لم نسمع تحت قبة البرلمان كلمة «الأمر لي».

وعالمةٍ بالنحو قلتُ لها أعربي:

- البرلمانُ سيدُ نفسه وهو الرقيبُ على السلطة التنفيذية.
- قالت: البرلمانْ اسم مريض ومحكوم بالسكونً ومجرورٌ بالسلطة التنفيذية وعلامة مرضه وجرّه قانون الانتخاب والطائفية.

برَّحتَ يا مرضَ الجفونِ بممرضٍ مرضَ الطبيبُ له وعِيدَ العوّدُ

- قلت سيدتي البرلمان مبتدأ.
- ضحكت وقالت السلطة التنفيذية هي المبتدأ والخبر.
- سيدتي: أعرف ان السلطة التنفيذية هي:

شيخٌ يرى الصلواتِ الخمس نافلةً ويستحلُ دمَ الحجاجِ في الحرم

– قالت سامحك الله لأنك لا تعرف إلا النصوص وتنقصك التجربة.

فأدركت عندها أن المجالس النيابية واقعة في شرنقة السلطة التنفيذية

أنا لا أستحضر سيبويه الآن، ولكن بربِّكم أليست هذه الأمة هي خير أمة أُخرجت للناس؟

سأعفيكم من مُرّ السؤال، لأقول إن الرقابة في البرلمانات العربية لا ترفع، ولا تنصب، ولا تسكّن، ولا تجرّ، ولا تضمن حتى الوزن. ولدى الخليل بحر بسيط أو خفيف أو طويل وليس للبرلمان ظلٌ ظليل، فتركيبة البرلمانات ضعيفة وهشّة وحكم اللون الواحد يعفي من أسئلة واستجوابات حقيقية، برلمان الصوت الواحد والحقيقة الرسمية التي لا يتسع متنها لسؤال، أو استجواب، وغياب الشروط التي تساعد على نمو عشبة غريبة، اسمها الديمقراطية، ونبتة شريرة اسمها تداول السلطة، تُبقي الحكومات قلقة ومتوترة تربكها أي نافذة مفتوحة، ولكن لم يبق في الميدان فرسان ولا بقيت خيول، ومن أي النوافذ والأبواب ستأتي الرقابة؟. إن الأمّية في الوطن العربي تتجاوز 37% أتدركون يا سادتي ان هذه النسبة تساوي عدد سكان المانيا؟!..، بالعلم والمعرفة والثقافة والديمقراطية تكون الرقابة.

المجالس العربية يا سادتي، مجالس نحل وملل وعلل، ومجالس ذهب... ومذاهب... وقلة مواهب.

قد عسكرت معها الرزايا عسكراً وتكتبت فيها الرجال كتائباً

فعن اليمين قبائل وعن اليسار قبائل بعضها بني عوف وبعضها بني ثعلبة تعب الكلام من الكلام ولم نقل الكلام الأخير.
إنه أمر منهك فعلاً أن يظل البرلمان العربي قيد التأسيس.

ما أحزنَ الورد لم يُعرَف له عبقٌ وأضيعَ الغصن لم يُقطف له ثمرٌ

أيها السادة،

1573 سؤالاً في البرلمان اللبناني منذ الاستقلال 1943 وحتى اليوم، و245 استجواباً ولم تُجَرَّ حكومةٌ واحدةٌ للمساءلة وللاستقالة إذا أمكن، ومهما يكن من أمر فيبقى التأثير محدوداً ولو لحين، وهذا ليس لعطلٍ في البرلمان فقط وإنما لطائفيةٍ أو مذهبيةٍ أو محسوبية، وليست البرلمانات العربية بأحسن حال، ولبنان هو الأهم في التمثيل والديمقراطية من المحيط إلى الخليج!...

وفي أول سنتين من تطبيق الدستور حجب البرلمان الثقة عن حكومتين: حكومة اوغست باشا أديب في 7 أيار 1927 وحكومة بشارة الخوري في 9 آب 1928، وكانت ممارسة البرلمان لهذه الصلاحية مرتبطة بتقييد صلاحية رئيس الجمهورية في حل البرلمان، أما بعد التعديل الدستوري الثاني عام 1929 والذي اطلق يد رئيس الجمهورية في حل البرلمان وخاصة منذ الاستقلال فلم يحجب البرلمان الثقة عن الحكومة التي مارست بالمقابل صلاحيتها في حل البرلمان.

بالإضافة إلى ثلاث لجان تحقيق برلمانية لم تستطع أن تُصدر قراراً اتهامياً واحداً. أليست لجان التحقيق البرلمانية والأسئلة والاستجوابات من الأحباب والأتراب؟

– وما لنا ولهذا الآن؟ أليست مناقشة بيان الحكومة والتصويت على الثقة من أهل القبيلة والعشيرة؟

– رقابتنا يا سادة رقابة صيد نجوم واعلام
– رقابة أرجوحة حكاية كان يا مكان، رقابة أترك قمرنا يا حوت
وهل رأيت الحوت يبتلع القمر ؟

– أليست مراقبة الموازنة واستعمال الاعتمادات من أهل البيت وآله وآلائه؟ ثم ماذا أقول بالقوانين الانتخابية ولوائحها ومراقبتها وضمانتها ونزاهتها وفرزها ونتائجها؟ وأي القوانين سيعتمد؟! أقوانين اخوان الصفا وخلاّن الوفاء؟

اظمتني الدنيا فلما جئتها مستسقياً مطرت عليَّ مصائبا

– وأعود إلى لجان تقصي الحقائق وطرح موضوع عام للمناقشة والشكاوى والعرائض والاتهام الجنائي، فأقول أن الحكومات تفعل ما تشاء بصرف النظر عمّا تريده المجالس النيابية في البلاد العربية، وكل ما عداه كلمات.. كلمات .. كلمات!...

– الخطـة، نقـل الاعتمـادات، تجـاوز الاعتمـادات، أمـلاك الدولـة، فـرض الضـرائب، التصـديق علـى المعاهـدات، القـروض العامـة، مـنح الاحتكـارات والامتيـازات، اسـتغلال المـوارد الطبيعيـة، عـدم تخصـيص الإيـرادات، «مبـدأ شـيوع الموازنـة»، الموازنـات الإسـتثنائية، سـلف الخزينـة... كلّهـنّ بنـاتٌ يتيمـات وسـبايا نادبات وا برلماناه، وا رقابتاه،
وا معتصماه...

رُبَّ وا مُعتَصِماه انطَلَقَتْ مِلءَ أفواهِ البناتِ اليُتّمِ
لامَسَتْ أسماعَهم لكنّها لم تُلامِسْ نَخوةَ المُعتصِمِ
سبايا، سبايا
قد استرد السبايا كل منهزم لم يبقَ في رقِّها إلا سبايانا

أيها السادة،
سألت الناس أين غدا النظام؟
فردّ الناس أين غدا النظام؟
دساتيرٌ معطّلةٌ منذ زمن، وما يُجدي إذا كثر الكلامُ،
فراغ في كلام كل يوم وقانون له نفعٌ وليس له احترامُ،
وما نفعُ السفينة عُظم سارٍ إذا غاب الربابنة العظام؟

أين الذي ؟!
يستصغرُ الخطرَ الكبيرَ لوفدهِ ويظنُ دجلةَ ليس تكفي شارباً؟!

بين الكتاب والتطبيق رحلةُ عمرٍ طويلة ودونها خارطة للطريق.

أيها السادة،

الشعب مصدر السلطات، وأمره متروك للمنافقين والمنجّمين وضاربي الوَدَع وأصحاب البِدع، وقارئي الطالع وبعد ذلك أهو المراقب والمحاسب؟!، وما زال ينتظر، لكن ثقافته وذاكرته لا تقومان على الرقابة والمحاسبة بقدر ما تقومان على القصص والروايات والأساطير.

مصدر السلطات يعيشُ في قصيدة، ويبكي على قصيدة، ويحنُّ إلى قصيدة، وتسكُنه القصيدة، ويموتُ في القصيدة، ولا يعرفُ بيت القصيد.

تلجُ دموعي بالجفون كأنما جفوني لعين كل باكيةٍ خدُ

واسمحوا لي أن أذّكر بما أورده الدكتور نقولا فتوش في المجلس النيابي على لسان ديمولان إذ قال ما حرفيته، وهو مدّون في محاضر المجلس.

مسكين هو الشعب هذا المجموع المبهم، الحائز، الصابر، المتالم، المؤمل المرتقب ابداً طلائع الفرج ومواكب السعادة، تسوقها اليه زمرة اختارها، أو اختاروها له، او توهم انه اختار لتدبير شؤونه.

يقول غاندي

ان الحق قوة، والقوة كامنة في الشعب، اما البرلمانات فلا قوة لها ولا وجود، ما لم تكن مستندة الى الشعب.

ويرد عليه جوفاني

أرون الشعب اعطكم عيني اليمين، فمنذ عشرات السنينن وأنا أنقب عنه ولما أعثر عليه.

أو أنني ذاك مع قنديله بضحىً يمشي يفتش عن شخص فلا يجدُ

اما الجنرال ديغول فقد اعتبر

ان الشعوب كالجيوش، تحصل على ما تريد وأكثر مما تريد متى تولى أمورها رؤساء أكفاء.

ولن أُنهي بنظرة تشاؤمية لما قاله برنارد شو

لن تعمل الشعوب شيئاً في سبيل العلم والحرية عدا محاربتها لبعضها، وقد تُفني بعضها في المعركة دون تحقيق الهدف.

فالمطلوب سلامُ الشعب مع نفسه، وعندها تستقيم الأمور.

ويحضُرني هنا قول الشاعر نجيب جمال الدين:

يا أمّة ضحكت من جهلها أمم قيلت وتضحك حتى يأذن الأبدُ

قبائل الشعر ما زالت قبائله فيها الحداء وفيها الرجزُ والرصدُ

والموجُ يضربُ بابَ العصرِ يحطمهُ وهم يقولون عنه انه زبد

لماذا يا أبتِ نحن غرباء؟!

لا يحدّثك حاضر شعبنا عن برلمان عربي «مارد نمرود واحد» ساءل الحكومة جدّياً عن خطة عملها، وبيانها الوزاري، وراقبها، واستجوبها، وحقق معها نتيجة مخالفات ارتكبتها، فطرح فيها الثقة ونال منها. ومتى سنقول للبرلمان:

فلا يجبرون عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره؟!

ذاكرة شعبنا تحدّثك عن ليلة القبض على فاطمة، ولا يحدّثك حاضر شعبنا عن ليالي القبض عليه، قذىً في عينيه.

وتوغل ذاكرة شعبنا في التاريخ وعلم التاريخ فيحدثك عن الإغريق وطائر الفينيق، ولا يحدثك حاضر شعبنا أنّا سكارى حيارى وفي سُبات عميق.

ولا يفتر ثغر شعبنا وتنفرج أساريره وترف عيونه لكل ما يجري حوله من مخالفات وافتراءات وأن الأمر لا يعنيه، وما ذاك إلا لجهل ولا مسؤولية وأمّية ضاربة جذورها في الأرض وعلى الدولة والمجتمع اجتثاثها، لكن بعض الشعوب تراقب وهي تحتضرُ.

فيمَ الإقامةُ بالزوراء لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي ؟!

تُرى هل أن مصدر السلطات «لم يعانقه شوق الحياة فتبخر في جوّها واندثر ؟!»

وا حرّ قلباه
ويتساقط المطر الأسود في عيني زخات زخات.

عفواً سادتي، بعضُ البوحِ ضُقتُ بهِ
فسالَ فوق فمي حرّان يستعرُ
خنقتُ بالدمعةِ الخرساءَ أكثره
وأقتل الدمع ما لا يلمح البصرُ

كل ما ذكرت هم الأهل مجتمعين
وعندما مررت بالرقابة أسألها علامَ تنتحب الفتاة ؟!...

قالت كيف لا أبكي وأهلي جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟ ! ...

هذه حكاية حال جئت أذكرها وليس يخفى على النواب مغزاها

مطرٌ مطرٌ مطر

ومصدر السلطات مخطوفٌ مخطوفٌ مخطوف

أقولها بكلمة من القلب، مشحونة بالمحبة والإجلال والاحترام وبحرقة دامية، وذلك أن لي بينهم أكثر من صديقٍ ورفيقٍ وجليسٍ وأنيس، وإذا كانت الحقيقة مُرّة فالدواءُ أيضاً مرّ، حسبي أن أورد هنا آية أرسطو الخالدة وهو يخاطب تلامذته: «أحب سقراط لكن الحقيقة أحبّ إليّ».

هذا عتابكَ إلا انه مُقَةٌ

قد ضُمنِ الدرَ إلا انه كَلِمُ

أيُقسم البرلمان أنّا ظلمناه ؟! ...

عدنان ضاهر

أمين عام مجلس النواب